الأمير عبدالقادر الجزائري زعيم المقاومة المتنور
بن جبور محمد ، المجلد الثاني عشـر، العدد 2، ماي 2021،
ص ص 98–110

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

البعد الإنساني للمقاومة في فكر الأمير عبد القادر الجزائري

The human dimension of the resistance in the thought of Emir Abdelkader Al-Jazaery

محمد بن جبور (*)

جامعة وهران 1، الجزائر

bendjebourmed@gmail.com

تاريخ الإيداع: **05** /2021/01 تاريخ القبول: 2021/02/19 تاريخ النشر: 2021/05/30

الملخص:

تتناول هذه الدّراسة البعد الانساني في مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري، وما تعرض له من خذلان كبير من المخزن المغربي، أثناء تواجده في الأراضي المغربية مع بداية أفول مقاومته ما سهل على المستدّمر الفرنسي توجيه الضربات القاسية على ما بقي من أنصاره، فاضطر إلى مشاورتهم حقنا لدماء المسلمين وخوفا على الأمة الجزائرية من بطش الأعداء الفرنسيين، فضل توقيف المقاومة في ديسمبر1847 ، وقد وصفت الكتابات الفرنسية هذا الموقف بالاستسلام، وستركز هذه الورقة البحثية على دور الأمير عبد القادر في ترسيخ قيم الإنسانية والتسامح الدّيني، الذي جسده في موقفه الإنساني المشرف من الفتنة التي وقعت في بلاد الشام، فحقنا لدّماء المسيحيين، عرض نفسه للخطر، واستطاع حماية أكثر من عشرة آلاف منهم ممن طلب الأمان والاحتماء به، حيث وفر لهم الحماية، وسهر على راحتهم بعين لا تنام، مجسدا نزعة إنسانية، واقفا أمام من يسيء للإسلام والمسلمين عن جهالة.

الكلمات الدالة:

الأمير، عبد القادر، الإنسانية، التسامح، الإسلام، المسيحيين، الفرنسي، المخزن.

Abstract:

This study deals with the human dimension in the resistance of Emir Abdelkader Al-Jazaery, and the great disappointmen the suffered from the Moroccan Makhzen, while he was in the Moroccan lands at the beginning of his resistance, which made it easy for the French recruiter to direct harsh blows on what remained of his supporters, so he had to consult them for our right to the blood of Muslims Fearing the Algerian nation from the oppression of the French enemies, he preferred to stop the resistance in December 1847, and French writings described this position as

(*) المؤلف المرسل: **بن جبور محمد** bendjebourmed@gmail.com

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

surrender, and this research paper will focus on the role of Prince Abdelkader in consolidating the values of humanity and religious tolerance, who embodied him in his honorable humanitarian stance from the strife that occurred in Bilad al-Sham, so our right to the blood of Christians exposed himself to danger, and was able to protect more than ten thousand of them who sought safety and take refuge in it, by providing them with protection, and watching for their comfort with an eye that does not sleep, embodying a human tendency, standing in front of those who offend Islam and Muslims out of ignorance..

Key Words:
Emir, Abdelkader, Humanity, Tolerance, Islam, Christians, French, Makhzen

****

مقدمة:

ذكرت المصادر التاريخية التي كتبت عن سيرة الأمير عبد القادر الجهادية، أنه عرف بإنسانيته، المستمدّة من التراث العربي الإسلامي، فالأمير عبد القادر حارب جيوش الاحتلال الفرنسي من 1847/1832، وخلال مقاومته حرص على القيّم الإنسانية، عندما كانت سلطة المخزن المغربي تآزره، أو حتى بعدما خذلته، واضطر إلى توقيف جهاده، حقنا لدماء ما بقي من أنصاره، مجسّدا قيّما إنسانية نابعة عن تجربته، وعن الانسان المتجدّر في انسانيته، وقد أكّدها في المهجر عنّدما حمى المسيحيين في بلاد الشام، معرّضا نفسه للخطر، مقدّما دروسا في حقوق الانسان، قبل أن يصدرها الآخر، ومكرسا مبدأ التسامح، والتّعايش المشترك، فكان رجل دين، وحوار، وقيم.

1-تجهيز المخزن المغربي لحملة عسكرية على الأمير

من أجل تهيئ الحملة العسكرية على الأمير عبد القادر وتوجيه الضربة القاضية له، قام المولى عبد الرحمان بإصدار أوامره القاضية ببعث إمدادات عسكرية بقيادة المولى إبراهيم بن عبدالملك إلى عامل الريف، وإرسال إمدادات أخرى إلى ميمون ولد البشير قائد بني يزناسن، بالإضافة إلى بوزيان ين شاوي، ومن الإجراءات الاستعجالية التي قام بها ولي العهد أنه قام بإقالة عامل وجدة بوزيان العبدوني، وعين بدله عبدالملك الروداني، واستطاع بهذا الإجراء أن يخلق نوعا من الهدوء والاستقرار عند قبيلتي أنكاد وبني يزناسن.

وبعدما تمكن ولي العهد سيدي محمد من تهيئ كل الظروف، من أجل نجاح حملته على الأمير عبدالقادر، خرجت قواته المتكونة من خمسة عشر ألفا من الفرسان والرماة يوم 14

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

أكتوبر من نفس السنة، بعدما كانت هذه القوة قد تجمعت في مدينة فاس، وكانت خطة المخزن المغربي تقضي بمحاصرة الأمير عبدالقادر، بحيث يعسكر المولى سيدي محمد ببلاد المطالسة، بينما المولى أحمد يعسكر بقواته بتافريست، أما بالنسبة لعامل الريف محمد بن عبدالصادق، فلقد أوكلت له مع المولى إبراهيم مهمة حصار الأمير في الريف المغربي، كما عسكر بوزيان بن شاوي قرب معابر ملوية، وبقي قائد وجدة متمركزا قرب بني يزناسن، وبعد هذا التمركز، كان على هذه القوات أن تتجمع كلها بقصبة سلوان، وبعد ذلك تبدأ في تنفيذ عملياتها العسكرية ضد الأمير عبدالقادر وأنصاره[1]، الذي كان بقصبة سلوان جنوب مدينة مليلية، وكانت قوته تفوق الثلاثة آلاف فارس، كما كان لا يزال يلقى دعم بعض القبائل المغربية، كالمطالسة، وبني بويحيى، وكبدانة، والشجع، وقسم من القلعية، وأولاد ستوت، غير أن هذه القبائل بدأت تغير من موقفها تجاه الأمير عبدالقادر، وانحازت إلى القوة المخزنية، حيث قام المطالسة، وبني بويحيى، وكبدانة، بعرض مساعداتهم، وإبداء نيتهم في الانضمامإلى قوات سيدي محمد، ومع حلول شهر نوفمبر فقد الأمير عبدالقادر كل أنصاره من قبائل الريف المغربي، ولم تبق معه سوى قبيلة أولاد ستوت[2]، وفي ظل هذه الظروف الصعبة التي أصبح يعاني منها الأمير عبدالقادر، بدأ يبحث عن الحلول المنطقية للخروج منها، حيث وصلت إلى مرابط بني سعيد، معلومات تفيد بأن الأمير حاول الاتصال بقبيلة حميان*، التي كانت تقيم قرب الحدود المغربية، من أجل السماح له باستخدام أرضها، لتفادي الوقوع في قبضة السلطات المخزنية، وقد بادر هذا المرابط بإرسال تحذير إلى دي شاطو[3].

2- استراتيجية الأمير العسكرية لمواجهة المخزن المغربي:

بعدما علم الأمير عبدالقادر بأن ولي العهد سيدي محمد قد حل بمدينة تازة، قام بجمع أصحابه وخاطبهم، حيث قال: "إن المولى عبدالرحمان قد ظهر اليوم، فماذا تفعلون؟ تقاتلون، أم تفرون؟"،وفي نفس الوقت، كان قد بعث برسائل إلى شرفاء المغرب، طالبا منهم التوسط لحل الخلاف بينه، وبين المولى عبدالرحمان، وقد بادر هؤلاء، حيث رحلوا إلى فاس، وقابلوا السلطان، والتمسوا منه مسامحة الأمير عبدالقادر، تقديرا لما قام به ودوره الذي لعبه في الدفاع عن الإسلام والمسلمين بالجزائر، بيد أن المولى عبدالرحمان رد على هؤلاء الشرفاء ردا سلبيا، حيث قال: "إنه لم يعد مسلما حقيقيا، ذلك الذي غدر بمضيفه، بعد أن طلب ضيافته، ولم يعد مسلما حقيقيا، ذلك الذي لم يكتف بعصيان أوامر أمير المؤمنين، بل تصرف كسيد في إيالته، ولم يعد مسلما حقيقيا، ذلك الذي يذبح السكان الخاضعين لسلطانهم

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الشرعي، ذلك الذي يهاجم بجيوشه، ويقتل خدامه المخلصين، إنه فتّان يجر وراءه ذيلا من النار والدم حيثما مر، ولا أريد أن أسمع شيئا من زنديق، وشعلة من الشقاق، وإذا أراد تجنب مصائب جديدة، فليترك إيالتي، وليرحل إلى مكان آخر، وليحمل إليه الفتنة التي تصاحب خطواته، إن أحدنا فقط هو الذي يجب أن يحكم في إيالتي، والله هو الذي يحكم بيننا"، ولقد توصل أحد عملاء دي شاطو إلى هذه المعلومات، واللقاء الذي تم بين السلطان والشرفاء، وقام ببعثها إلى الفرنسيين[4].

لقد أشار دي كوسي بريساك، بأن الأمير عبدالقادر وبالرغم من الظروف الصعبة التي أصبح يمر بها، فإنه تلقى من حاكم مدينة مليلية أنواعا عديدة من الذخيرة والسلاح، وكان التاجر الانجليزي ليجير ST LEGER، والذي اشتهر في المغرب باسم "بوطربوش"، هو الذي تكفل بإيصالها، عن طريق تفريغها قرب شواطئ مليلية، بيد أن المغاربة تمكنوا من إفشال محاولة ثانية قام بها هذا التاجر، حيث أراد أن يتصل بأنصار الأمير عبدالقادر، والذي كان من بينهم ابن البوحميدي الولهاصي[5]، وبعدما ضيق المغاربة الخناق على الأمير عبدالقادر وأنصاره، بدأ يبحث عن المنافذ لكي يسلكها، إذ كان الأمر يتطلب الانسحاب والابتعاد عن الخطر.

وعندما أصبح جيش المولى عبدالرحمان على وشك الوصول إلى الريف، اضطر الأمير عبدالقادر إلى الانسحاب ابتداء من 09 نوفمبر 1847، وبعد مرور أيام قليلة، تحركت قواته جنوبا، حيث أراد أن ينتقل إلى الصحراء، غير أنه اصطدم بقوات قبيلة بني يزناسن، التي قطعت عليه الطريق ومنعته من التوجه إلى الجنوب، وحينها لم يجد بدا من العودة، حيث استقر على الضفة الغربية لنهر ملوية[6]، وفي رسالة بعث بها ابن عبدالصادق إلى دي شاطو، بين فيها حيثيات ما وقع للأمير عبدالقادر، عندما أراد أن ينتقل إلى الصحراء، حيث قال: "بعد أن قام بنو يزناسن بدفع عبدالقادر، وأظهروا له فوهات بنادقهم، لم يستطع أن يفر إلى الصحراء، فرجع إلى البحر على الضفة الغربية لملوية، ولما رأى أنه لا يستطيع أن يسلك طريق عجرود، بسبب قواتكم على الحدود، أرخى رأسه المتكبرة، وطلب الرحمة، والسماح له بالانسحاب إلى الصحراء"[7].

وفي ظل هذه الظروف، استطاع صهر المولى عبدالرحمان، محمد بن عبدالرحمان الحلافي، الذي كان من زعماء قبيلة الأحلاف، أن يتدخل من أجل إقناع الأمير عبدالقادر، كي يبعث بوفد إلى السلطان طالبا الأمان، ولوضع حد للخلاف الذي ازدادت حدته بينهما، وقد اقتنع الأمير عبدالقادر بالفكرة، حيث أرسل وفدا يرأسه محمد البوحميدي الولهاصي، وبعث معه

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

بالهدايا الثمينة، حيث استقبل السلطان هذا الوفد في 03ديسمبر 1847[8]، وفي رسالة بعث بها المولى عبدالرحمان إلى محمد أشعاش، تحدث فيها عن الوفد الذي أرسله الأمير عبدالقادر، حيث قال فيها: "فلما رأى عدو نفسه إحاطة الجيوش به، وجه وفدا من قبله، مدعيا التوبة فيما مضى، فأجبناهم بأن أحب الحديث إلى الله أصدقه، إنّ صاحبكم هذا إن أراد الخير لنفسه، واحتاط لدينه، يختار أحد الأمرين، إما أن يدخل لإيالتنا، هو ومن معه آمنين على أنفسهم، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، أو يصحر،أي ينتقل إلى الصحراء، فطلبوا منا الإمهال حتى يخبرونه بالملاقاة، ويستدركون الأمر قبل فوات الأوان، فأجبناهم إلى ذلك، فما وصلوا حتى ضرب على المحلة ليلا"[9].

3-فشل المساعي السلمية للأمير عبد القادر مع سلطان المغرب:

في الرسالة التي بعث بها الأمير عبدالقادر إلى ليون روش، أشار إلى اللقاء الذي تم بين السلطان ومحمد البوحميدي الولهاصي، فقال: "انتدب إلى السلطان الشيخ محمد بن عبدالرحمان الحلافي، ليطلب مني أن أرسل أحدا من أعواني لكي يتفاوض معه لتسوية ودية، وقد أرسلت له هدايا مع أخينا سيدي محمد البوحميدي، ولما وصل إلى الأمير سيدي محمد، وجهه على الفور إلى أبيه، ورغم ذلك فإن الأمير مستمر بالاقتراب مني بجيشه الكبير، ولما رأيت ذلك علمت بعزمهم على الغدر، ولذلك لا أثق فيهم"[10]، وبالتالي فإن المحاولات التي قام بها الوفد الجزائري لم تأت بأية نتيجة، وذلك لانعدام الثقة بين الطرفين، وقد ذكرت المصادر التاريخية بأن المولى عبدالرحمان قام باعتقال محمد البوحميدي الولهاصي، ووضعه في سجن فاس، وبعدها مات مسموما[11]، بينما ميشو فقد أشار بأن البوحميدي قد استقبل بحفاوة من طرف المولى عبدالرحمان، ومنحه بيتا في مدينة فاس، وزوجه، بيد أنه بعد شهور قليلة قام بإيداعه السجن، ومات بعد ذلك مسموما[12]، غير أنه في الرسالة التي بعث بها الأمير عبدالقادر من فرنسا إلى البوحميدي الولهاصي، تؤكد بأن هذا الأخير كان لا يزال حيا، وقد خصه المولى عبدالرحمان بمعاملة حسنة، وقد قال في هذه الرسالة: "بلغنا أن لك وجها عند السلطان وفقه الله للخير،وأعانه عليه وأصلحه، وعلى يديه، وهذا دعاؤنا له اليوم، والأمس وغدا، ونعذره في حقنا، ونستغفر الله في حقه، فإنني ما أبرء نفسي"[13].

بعدما استنفذ الأمير عبدالقادر كل المحاولات، لإيجاد حل للخلاف الذي كان بينه وبين المولى عبدالرحمان، الذي تجمعت جيوشه بقصبة سلوان، حاول الاتصال بليون روش، حيث دعاه إلى التفاوض في مدينة مليلية، بيد أن ليون روش رفض اللقاء معه، واقترح عليه لحل

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

النزاع، أن يأتي إلى مليلية مع أهله وأصدقائه، وهناك تتكفل السلطات الفرنسية بترحيله على ظهر سفينة فرنسية إلى الجزائر، ثم إلى مدينة مكة، كما اشترط عليه أن يبقي أحد قادته في مدينة طنجة كرهينة[14].

لقد كان رد الأمير عبدالقادر في بداية شهر ديسمبر 1847، حيث قال لليون روش: "لا أستطيع أن أرسل إليك أحدا من قبلي، لأنني قد أتعرض للهجوم من وقت لآخر من قبل الجيوش المغربية، التي لا تبعد عني إلا بستة ساعات، وأتمنى أن يؤخروا هجومهم، لأستطيع التحادث معك، لكن الحرب في هذا الوقت معلنة بشكل كامل"[15]. وحتى يمنع الأمير عبدالقادر هجوم المغاربة المحتمل، أو يسعى إلى تأجيله، قام بشن هجومات مفاجئة ليلا على القوات المغربية المتمركزة بقصبة سلوان، التي كان يقودها المولى أحمد، والمولى إبراهيم، والمولى محمد، وابن عبدالصادق، وكان عددها أكثير من أربعين ألف مقاتل[16]، وعليه فقد تقدم الأمير عبدالقادر مع قواته، التي كان عددها لا يتعدى ألف ومائتي فارس، وثمانمائة راجل، نحو قصبة سلوان، وحتى يلقي الرعب في صفوف القوات المغربية، قام بشحن الجمال بالحلفاء والقطران، والمشاعل المحمولة على الرماح، وبدأ بالهجوم في الريف المغربي، حيث بدأ بمعسكر المولى أحمد[17]، ولقد ذكر الناصري في كتابه تفاصيلما حدث، عندما تقدم الأمير عبدالقادر نحو قصبة سلوان، وشن هجوماته الليلة المباغتة على القوات المخزنية، فقال: "عمد الحاج عبدالقادر ذات ليلة إلى طائفة من جنده، خمس الخمس عشرة مائة على ما قيل، كلهم بطل مجرب، انتقاهم انتقاءا، وكان جيش الخليفة سيدي محمد منقسما قسمين، بعضه معه، وبعضه مع أخيه المولى أحمد، فصمد الحاج عبدالقادر، ولم يقف بهم إلا بين المحلتين، وأطلقوا الرصاص مثل المطر، وأرسلوا حراقيات على الجمال، وتهاويل مفزعة، فماج الناس في ذلك الظلام الغاسق، ونزل بهم من الهول الكثير، وقام الخليفة، فجعل يسكن الناس، ويمنعهم من الركوب، خوف الفرار، وأمر العسكر، والطبجية بالرمي بالكور، فكانوا يرمون إلى جهة محلة المولى أحمد، ظنا منهم أن العدو لازال مقابلهم، ومحلة المولى أحمد يرمون إلى جهتهم كذلك، فهلك من المحلتين بسبب ذلك بشر كثير، وأما الحاج عبد القادر، فإنه فر مع أصحابه، بعد أن حملوا الكثير من موتاهم معهم، ولما أصبح الناس، وجدوا فيهم من الجرحى نحو الألف، ومن القتلى ما يقرب ذلك، وأصبح حول المحلة، من قتلى عبدالقادر الذين أجهضهم القتال عن حملهم نحو الخمسين، وأسروا نفرا أحياءا"[18].

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

وفي تقرير لدي شاطو يوم 06 جانفي 1848،أشارإلى الأحداث التي وقعت قرب قصبة سلوان، حيث ذكر بأن الأمير عبدالقادر، بعدما شن هجوما خاطفا على معسكر المولى أحمد، انتقل إلى معسكر المولى سيدي محمد، حيث نفذ مجزرة كبيرة، ثم حاول الانسحاب والفرار، فتعرضت قواته لضربات المدافع الثمانية، لكنها تمكنت من الفرار، ولقد أشار القنصل الفرنسي كذلك للخسائر التي تكبدتها قوات المخزن المغربي، حيث ذكر بأن ابن عبدالصادق، قد فقد مائتين وخمسين رجلا، ولإخفاء عار الهزيمة قطعت رؤوس خمسة وثلاثين من رؤوس جثث الجند المغاربة، وأرسلت إلى مدينة فاس على أساس أنها لأنصار الأمير عبدالقادر[19].

حسب ما أشارت إليه المصادر التاريخية، فإن الأمير عبدالقادر كان يهدف من وراء شن هجوماته المباغتة للقوات المخزنية، إما للقضاء على ولي العهد المولى أحمد، أوأسره، وقد ذكر هـ شورشيل بأن الأمير عبدالقادر كان يطمح من الهجمات التي قام بها على القوات المغربية، الانقضاض على خيمة الأمراء المغاربة وأسرهم[20]، أما بالنسبة لمحمد بن عبدالقادر، فذكر بأن أباه شن هجومات خاطفة مع قواته، حتى اقتربوا من سرادق أبناء المولى عبدالرحمان، حيث وجد الأمير بأن القوات المخزنية قد أحاطت بتلك السرادق، وتحصنت بالدواب والأثقال، وقد احتدم القتال على مقربة من السرادق، من منتصف الليل، حتى بزوغ فجر اليوم، غير أن الأمير لم يستطع أن يصل إلى مبتغاه[21]، أما بالنسبة للطرح الذي قدمه ميشو بلير MICHAUX BELLAIRE، فقد جاء مطابقا لما قدمه محمد بن عبد القادر، حيث قال بأن الأمير عبد القادر، كان يهدف إلى أسر المولى سيدي محمد، أثناء هجومه المباغت على معسكر سلوان[22].

وعليه يمكن القول بأن الأمير عبد القادر، قد اعتمد على أسلوب الحرب الخاطفة والمباغتة، حتى يعوض النقص العددي الذي كان يعاني منه، مقارنة بالقوات المخزن المغربي، علما بأنه كان قد اعتمد على هذه الإستراتيجية الحربية في معركة تافريست، ولقد ذكر الناصري في كتابه، بأنه لولا يقظة الفرسان المغاربة وإحاطتهم بالخليفة سيدي محمد بن عبدالرحمان، لتمكن الأمير عبدالقادر من الانقضاض عليه[23]، أما إكنوسوس فأشار بأن القوات المخزنية لم يفاجئها الأمير بهجوماته الليلية، لأنها كانت ترتقب قدومه، حيث قال: "بل جاء من أخبر مولانا المظفر فأخذوا أهبتهم، فجاء المغرور في أثناء الليل بحرب شديدة، فلم يصادف إلا النار والحديد"[24].

ومن أجل طمأنة المولى عبدالرحمان، كتب له ابنه سيدي محمد، حيث قال له: "دفعا لما عسى أن يشيعه من طاش من الحراك ليلة الوقعة، من الحياينة وغيرهم، ومن في قلبه مرض

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

من أهل تلك الناحية،وما زاد المحلة ضربه، إلا حزما وتيقضا، واستعدادا له، وحرصا على أخذه بحول الله وقوته، وقبائل هذه النواحي سقط من أعينها من ليلة الوقعة، حيث رجع حقيرا"[25].

وفي اليوم الموالي، قام ولي العهد سيدي محمد، بإرسال خمسة آلاف فارس لملاحقة قوات الأمير عبدالقادر، ولقد تصدت لها هذه الأخيرة، فاضطرت إلى الرجوع لمعسكرها، وفي ظل هذه الظروف، تدعمت قوات المولى عبدالرحمان بقوات المطالسة، وبني بويحيى، بعدما كانت من أهم القبائل المؤيدة للأمير عبدالقادر، ولما أدرك خطورة الوضع مع بقائه في دائرته، انتقل عبر نهر ملوية*، واستقر قرب مصبه عند البحر يوم 13 ديسمبر 1847، ولقد شهدت هذه الفترة هدوءا نسبيا، حيث لم تقم القوات المخزنية بأية محاولة لمطاردة الأمير عبدالقادر، نظرا لنقص الذخيرة التي استنفذتها للتصدي لهجوماته الليلية، ورغم رفض حاكم مدينة مليلية تزويد المغاربة بالذخيرة، فإنهم تمكنوا من جلب كميات هائلة من البارود، والرصاص يوم 19 ديسمبر 1847، وكان مصدر هذه الذخيرة سفينة فرنسية كانت راسية بميناء مليلية[26]، وفي الوقت الذي تدعمت فيه القوات المغربية بقوات إضافية والذخيرة، أي العدد والعدة، عسكر الأمير قرب نهر ملوية، حيث بقي مع فرسانه ومشاته، وشدد الحراسة، حتى لا يتمكن المغاربة من اقتفاء أثر قواته، وحتى يحمي مؤخرة دائرته، وفي 20 ديسمبر وصلت القوات المخزنية إلى المكان الذي انتقل منه الأمير عبد القادر، في محاولة جريئة لملاحقته، حتى القضاء عليه، ولقد بعث محمد بن عبد الصادق بتقرير إلى قنصل فرنسا بمدينة طنجة، ذكر فيه تفاصيل ملاحقة الأمير حيث قال: "تابعنا عبدالقادر خطوة خطوة،إلىأن وصل إلى مكان قريب من البحر، حيث قام بعبور وادي ملوية، واستقر في المكان المسمى عجرود، وكان مقتنعا بأننا لن نعبر النهر، بسبب صعوبة المعبر، ولكننا عبرناه، واصطدمنا به على الضفة اليمنى، وقد قتلنا اثنين من قادته، وحصانه، وترك للمحلة السلطانية عسكره، الذي مر قسم منه تحت حد السيف، وأسر قسم آخر، وقد قطعت أكثر من مائة رأس، وبلغ الأسر مائتين، وأرسلوا جميعا إلى فاس"[27].

واعتمادا على التقارير التي كان يبعث بها بعض الجواسيس الذين حضروا المعركة الأخيرة، التي وقعت بين قوات المخزن والأمير عبدالقادر، بعث دي شاطو بتقريره إلى وزير الخارجية كيزو، يوم 06 جانفي 1848، أشار فيه بأن قوات المولى أحمد قد وصلت في 20 ديسمبر إلى معسكر كبدانة، وعندما وجدت بأن الأمير عبدالقادر قد انتقل إلى الشرق، واستقر على الضفة اليمنى لنهر ملوية، قام محمد بن عبدالصادق بالعبور مع جيش الريف، ومئات من الفرسان،

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

غير أن الأمير كان أذكى منهم، فبمجرد رؤيته لهم، هاجمه مع فرسانه، وردهم، وفشل بذلك المغاربة في القضاء عليه، ولما شاهد ولي العهد ما وقع صمم على اجتيازه، حيث انظم إلى قوات ابن عبد الصادق، ولقد تمكن أكثر من عشرة آلاف مقاتل من الوصول إلى الضفة الأخرى للنهر، وحينها قام الأمير عبد القادر بشن هجومات مضادة لرد القوات المغربية، حيث وقعت معركة حاسمة، صمد خلالها ابن عبد الصادق مع قواته، وقد تحفزوا إلى مواصلة القتال، خاصة بعدما انظم إليهم بنو يزناسن، الذين لعبوا دورا هاما في انتصار القوات المغربية، حيث قاموا بتقسيم قوات الأمير عبد القادر إلى قسمين، وقد استمرت هذه القوات في مطاردة الأمير، وفي الصباح عادت ومعها مائة وستة وأربعون أسيرا، وثمانية وستون رأسا مقطوعة، أرسلت إلى مدينة فاس[28]، وبعدما انسحب الأمير عبد القادر إلى جبال بني يزناسن، وجه ولي العهد إنذارا لهذه القبيلة، وهددهم بالقضاء عليهم، إذا رفضوا تسليم الأمير عبد القادر، ولقد أشار محمد بن عبد القادر، بأن أباه توجه بعد المعركة إلى بني خالد التابعة لبني يزناسن، وطلب اللجوء من أحد أصدقائه، الذين كانوا من أتباع الطريقة القادرية، غير أنه وجده قد مال للقوات المخزنية، فاضطر إلى السير نحو الصحراء عبر ممر كربوس الواقع عند نهاية سهل أنجاد، لكنه وجد قوات تابعة للفرنسيين تحرس المكان بقوة[29].

4-إنسانية الأمير عبد القادر مع بداية تراجع مقاومته:

لقد أشارهـ شورشيل في مذكراته، للظروف التي أصبح يعيشها الأمير عبدالقادر، بعدما وجد معبر الصحراء محروسا، حيث ذكر بأنه جمع أصحابه، وشاورهم في الموقف الواجب اتخاذه، وكان رد أنصاره وأصحابه، أنهم أعلنوا استعدادهم للعمل بكل ما يأمرهم به، وكان رد الأمير عن موقف أصحابه هو الإشارة بأن الحرب قد انتهت، وأنهم قد فعلوا كل ما في وسعهم، من أجل مواصلة جهادهم الكفار وحلفائهم، وأشار بأن قدر البلاد الجزائرية أن تكون للنصارى، كما أكد بأن وجوده بها لن يزيد الجزائريين إلا الآلام والمآسي، وأن القبائل التي أيدته قد تعبت وأعياها الجهاد، وفي النهاية ذكر بأنه مخير بين تسليم نفسه إلى الفرنسيين، أوإلى المخزن المغربي، وقد ترك لهم حرية الاختيار، بينما فضل هو أن يسلم نفسه إلى من حاربه، عوض أن يثق بالذي غدر به، وكان يقصد المولى عبد الرحمان[30].

قرر الأمير بالإجماع، وأمام الظروف الصعبة، وقف القتال، وقد احتدم النقاش حول الأطراف التي يتم معها النقاش، المغربية أم الفرنسية، وكان قرار الأمير عبدالقادر أن يتفاوض مع لاموريسيير[31]، حيث بعث بمندوبين إلى قائد مقاطعة وهران، وكان من بينهم موح اليزناسي

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

وبن خوية، حاملين شروط الأمير لوقف المقاومة، حيث طلب من خلالها الأمان، والالتزام بنقله إلى عكا، أوالإسكندرية، حيث كانت مطالب الأمير تتمحور في قوله: "نريد أن ترسل لنا كلمة فرنسية لا تنقص ولا تتبدل، وتضمن لنا نقلنا إما إلى الإسكندرية، أو إلى عكا، ودون اتجاه آخر."[32]. لقد اتصل بن خوية والوفد المرافق له بلاموريسيير، وأظهروا الخاتم له، وعرضوا عليه مطالب الأمير عبد القادر، بيد أن الموافقة لم تكن مكتوبة، بل عبر لاموريسيير عن قبوله ببعثه بسيف وخاتم، وجاء جوابه كما يلي: "وصلي أمر ابن الملك لويس فيليب لقبول الأمان الذي طلبته مني، وقبول ذهابكم أيضا إلى عكا أو الإسكندرية، ولن نأخذكم إلى مكان آخر، ولا تشكوا في كلمتنا، فهي إيجابية، وملكنا سيكون كريما معك ومع مرافقيك، إنني أكيد بأنك تستطيع أن تحمل معك عن طريق البحر إلى الشرق، كل من يريد الذهاب معك"[33].

كما قام بعث رسالة إلى الدوق دومال، قال فيها: "الناس الذين حادثتهم هذا المساء، أكدوا لي حالة الضياع التي يوجد فيها عبد القادر، عندها بدأت في صياغة هذه الرسالة، وأنا تحت وقع هذه الأخبار المتضاربة، حتى جاءني بن خوية بصحبة مبعوثي الأمير، وكان يحمل سيفي وخاتم الكومندان بازان، إضافة إلى رسالة من الأمير عبد القادر كتبها صهره مصطفى بن التهامي، أردت نسخة منها مترجمة صحبة هذه الرسالة، وجوابي عليها، وجدت نفسي مجبرا لاتخاذ هذه الالتزامات تجاه الأمير عبد القادر، ولي الثقة الكاملة في سموكم، والحكومة في تزكيتها، إذا وثق الأمير في الأمان الذي أعطيته له ..."[34]، وبعدما تمت الموافقة على مطالب الأمير، انتقل بصحبة ما بقي من أصحابه وعائلته إلى قبة سيدي إبراهيم، ثم توجه إلى جامع الغزوات، حيث التقى بالدوق دومال، وعن طريق مترجمه ورسو، أكد له التزام فرنسا بوعودها التي قطعتها له، وكان ذلك في 23 ديسمبر 1847، وفي اليوم الوالي نقل على متن الباخرة SOLONإلى وهران، التي لم يمكث بها سوى ساعات قليلة[35]، حيث غادر المدينة في 25 ديسمبر عل متن السفينة لاسمودي LASMODEE*، ولقد ذكرت الكتابات التاريخية بأن حمادي الصقال♦ قائد تلمسان، قام ببيع كل الجمال والخيام، والبغال، والأحصنة، التي اشترتها سلطات الميناء، كما أشار إلى تسليم الأمير عبدالقادر، لسيفه وحصانه، بطريقة إرادية، وبدون إكراه، بيد أن الحفيدة بديعة الحسيني ذكرت بأنها سمعت جدتها تقول بأن سيف الأمير أخذ منه عنوة[36].

وفي 29 ديسمبر، قام المولى عبد الرحمان ببعث الرسائل إلى عماله في الأقاليم المغربية، لإعلامهم بخبر انتهاء أمر الأمير عبد القادر، حيث جرت احتفالات في مختلف الأرجاء المغربية[37]،

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

ولقد كان يتوقع أن يسلم الأمير نفسه إلى السلطة المغربية، وعندما سمع بلجوئه إلى لاموريسيرتأسف، وقال في رسالته التي بعث بها إلى عامله في مدينة تيطون عبدالقادر أشعاش يوم 2 جانفي 1848: "وكنا نظن أن معه من الدين والعلم ما يرده عن ارتكاب هذه الكبيرة، حتى اختار ذمة الكفر، عبدة الأصنام على ملة الإسلام، فهذا من سوء الخاتمة والعياذ بالله"[38].

بعد الانتهاء من مشكلة الأمير عبد القادر، وتسليم نفسه بادرت القوات الفرنسية إلى الانسحاب من الحدود المغربية، وفي نفس الوقت طالبت القوات المخزنية، أن تنسحب هي كذلك[39]، وأثناء تواجد الأمير عبد القادر ببلاد الشّام جسد بُعده الإنساني، من خلال موقفه المُشرف الذي أبداه تُجاه الفتنة الطّائفية التّي وقعت، وجهوده التي بذلها من أجل حقن الدّماء ونصرة المظلومين، لغض النّظر عن ديانتهم وانتمائهم الاثني، معرضا نفسه للخطر من أجل توفير الحماية، لمن احتمى من المسيحيين، وقبل ذلك جسد بُعده الإنّساني أثناء مقاومته للاستعمار الفرنسي طيلة خمسة عشرة سنة من المقاومة، حيث وضع لافتة خاصة بأسرى الحرب، تنصّ على حسن معاملتهم، فكان سباقا في وضع أسس القانون الإنساني في معاملة الأسرى قبل أن يتم اعتماده في أوروبا وهذه هي حقيقة شخصية الأمير عبد القادر الجزائري، داعيا للسلم والسّلام في العالم.

الخاتمة:

وخلاصة القول، فإنّ الأمير عبد القادر الجزائري بفضل شخصيّته الفذّة كانت له رؤية للآخر خلال مقاومته لمستعمرٍ غاشم مختلف دينا، وحضارة، وتاريخا، استغلّ الأرض والعباد، فكان الأمير يرى في هذا المستعمر إذا وقع أسيرًا فلابدّ أن يحميه حرصا على تطبيق المبادئ الإسّلامية السّمحاء على أرض الواقع، طيلة مراحل المقاومة، ومعاركه التي خاضها مدّة خمسة عشرة سنة، وخلال هذه الفترة كانت نظرته وأفكاره تحاكي نظرة المسلم، والإنّسان من خلال تعامله مع الآخر وحرصه على توفير الحماية له، هذه المسيرة الجهادية، والكفاح من أجل الأمّة الجزائرية، لم تجعله سياسيا، وعسكريا فحسب، بل أصبح يؤسِّسُ لحوار الحضارات، والدّيانات، من خلال تبادله للمراسلات مع كبار رجال الدّين المسيحيين، كما جسَّد بعده الإنساني عندما حمى بلاد الشّام من الفتنة الطائفيّة، مخاطبا علماء دمشق، ومحذرهم من تداعيات الفتنة، وهذه أبرز تجلّيات قيم التّسامح، والإنّسانية في شخصية الأمير عبد القادر.

الهوامش:

[1] دي شاطو إلى وزير الخارجية 19 نوفمبر A.M.A.E.C.P.M.V19.F.180

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

[2] مرابط بني سعيد إلى دي شاطو 06 نوفمبر 1847 A.M.A.E.C.P.M.V19.F.180

[*] هم رحل بالهضاب العليا بالقطاع الوهراني، تتفرع إلى بطني حميان الغرابة، وحميان الشراقة، الرجوع إلى محمد الهادي الحسني، المصدر السابق، ص 158.

[3] مرابط بني سعيد إلى دي شاطو 06 نوفمبر 1847 A.M.A.E.C.P.M.V19.F.180

[4] دي شاطو إلى وزير الخارجية 19 نوفمبر A.M.A.E.C.P.M.V19.F.180

[5] محمد بن عبدالصادق دي شاطو 1 نوفمبر 1847 A.M.A.E.C.P.M.V19.F.156

[6] دي شاطو إلى وزير الخارجية 26 نوفمبر 1847 A.M.A.E.C.P.M.V19.F.200

[7] محمد بن عبدالصادق إلى دي شاطو 28 نوفمبر 1847 A.M.A.E.C.P.M.V19.F.214

[8] دي شاطو إلى وزير الخارجية 12 ديسمبر 1847 A.M.A.E.C.P.M.V19.F.219

[9] المولى عبدالرحمن إلى عبدالقادر أشعاش، 29 ديسمبر 1847، خ، ح، م 4، مخ 22.

[10] الأمير عبدالقادر إلى ليون روش A.M.A.E.C.P.M.V19.F.236 - 264

[11] C.H. CHURCHILL.la vie d'abdelkader.traduit. Michel habart. 2ed. alger.paris.1974. 265.

[12] MICHAUX BELLAIRE, les Musulmons d'Algérie au Maroc, Paris, 1907, pp 59 – 60.

[13] عبدالرحمن بن زيدان، العزة والصولة في معالم نظم الدّولة، الرّباط، 1961-1962 ، ص 65 – 67.

[14] دي شاطو إلى وزير الخارجية 20 ديسمبر 1847 A.M.A.E.C.P.M.V19.F.225

[15] الأمير عبدالقادر إلى ليون روش، د ت، ديسمبر 1847 A.M.A.E.C.P.M.V19.F.263 - 264

[16] دي شاطو إلى وزير الخارجية، 6 جانفي 1848، م، م.A.M.A.E.C.P.M.V19.F.219

[17] C. H. CHURCHILL, op cit, p 264.

[18] الناصري، أبو الباس أحمد الإستقصاء في أخبار المغرب الأقصى، الدّولة العلوية، القسم الثالث، دار الكتاب، المملكة المغربية، 1956، ج9 ، ص 57.

[19] دي شاطو إلى وزير الخارجية، 06 جانفي 1848، م، م.

[20] C. H. CHURCHILL, op.cit, p 286.

[21] - محمد بن عبدالقادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، ج2، دار اليقضة العربية، بيروت، 1964/1384، ص 494 – 497.

[22] MICHAUX BELLAIRE, op.cit, p 60.

[23] الناصري،المصدر السابق، ص 97.

[24] محمد بن أحمد، المصدر السابق، ص 21-22.

[25] I. HAMET, h'istoire du maroc.paris 1923., p 146.

[*] نهر ملوية ينبع من الجنوب، ويصب في البحر المتوسط، قرب جامع الغزوات، وعلى بعد 17 كلم من الحدود الجزائرية المغربية، الرجوع إلى.18 – 15 le sure, C, L, Annuaire historique, Paris, 1848, p p

[26] دي شاطو إلى وزير الخارجية، 06جانفي 1848، م، م.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

[27] محمد بن عبدالقادر إلى دي شاطو، 22 ديسمبر 1847، م، م.

[28] دي شاطو إلى وزير الخارجية، 06 جانفي 1848، م، م.

[29] محمد بن عبدالقادر، المصدر السابق، ص 497 – 503.

[30]C. H. CHURCHILL, op cit, p 271 – 272.

[31]Archive national d'AIX en Provence, archive nationale du gouvernement de l'Algérie. E229. 1. Les araves venus de l(Algérie avec les frère d'Abdelkader, 1847.

Just Jean Etienne, Roy. Histoire de l'Algérie depuis les temps les plus anciens jusqu'à nos jour, EM, Paris, 1859, p p 248-327.

[32]P. AZAN l'armèe d'afrique de 1852-1930,paris ,1936. p 236

[33]1 doc 12 la détention d'Abdelkader au fort, 1847-1848, département des archives de la ville de Toulon, pp 4-5

[34]Francois charles theodore, Tauchard la fasse, Histoire de la gendarmerie d'Afrique et la colonie d'après les documents de l'Armée, 1830-1860, L.A.B.E, 1860, pp 326-330.

[35]ARSENE BEREUIL, Algérie Francaise, Histoire meurs coutume, industrie, agriculture, D.L.E, Paris, pp 285-286.

[*] ظهرت هذه السفينة الحربية لأول مرة عام 1840، شاركت في قصف موغادور في 16 أوت 1844، انتهت خدمتها عام 1865، الرجوع إلى.S.HD, Dépôt de la marin la frégate ASMODEE, 1840-1865

♦ الحمادي الصقال: شغل منصب قائد تلمسان في عهد الجنرال بيجو، وكان هذا الأخير يستخدمه كوسيط بينه وبين الأمير عبدالقادر في المحادثات التي كانت تتم بينهما، كما كان إلى جانب لاموريسيير عندما قرر الأمير وضع السلاح، إلى محمد الهادي الحساني، المرجع السابق، ص 144.

[36] بديعة الحسيني، فكر الأمير عبدالقادر الجزائري، حقائق ووثائق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2000، ص 211.

[37] المولى عبدالرحمن إلى عبدالقادر أشعاش، 29 ديسمبر 1847، خ، ح؛ م 4، مخ 22.

[38] المولى عبدالرحمن إلى عبدالقادر أشعاش، 02 جانفي 1848، خ، ح؛ م ، مخ 22.

[39] دي شاطو إلى وزير الخارجية، 6 جانفي 1848.